الشيوخ والشبان

بين المطرقة والسندان

للدكتور امير بقطر

« مات في الثلاثين ودفن في السبعين »
[بطلر]

بين الشيوخ والشبان عداء قد تقادم عهده . هو صراع لم يقف دولابه منذ الخليقة لحظة واحدة ، وحرب لم تكف رحاها عن الطحن والدوران منذ أن عرف العالم ذلك الشيخ الوقور الذي اصطلح الناس على تسميته آدم ، وذلك الفتى المكابر الذي شاء مؤرخو الخليقة أن يدعوه قايين. وقد يكون ذلك الصراع نزاعاً جديًّا بين الحكمة والإقدام ، كما أنه قد يكون ضرباً لطيفاً من المداعبة والمزاح بين أنصار الماضي والقديم ، وأنداد الحاضر والجديد . وقد يكون حرباً شعواء تتغيّر أوضاعها ، فهي تارة بين الاتزان والطيش ، أو التعقل والتهور ، وأخرى بين الجمود والمرونة ، أو الوقوف والحركة . ومهما يكن من شيء فان هذا الصراع سنة من سنن الطبيعة ، لن تجد لها تغييراً ولا تبديلاً ، وهو ضرورة لا مفرّ منها ، ووسيلة تتوسّل بها المجتمع لحفظ التوازن ، حتى لا يسفّ الشيوخ الى الحضيض ، فيجرون العالم على ظهور الدواب الى الوراء أجيالاً ، وحتى لا يجمح الشبان ، فيحملون المجتمع على أجنحة الهواء الى الامام أجيالاً

ومن الغريب أن بين الشيوخ من يأبى أن تتسلل الشعور البيض الى رأسه ، فيحارب على الدوام مع صفوف الشبان ضدّ الشيوخ ، كما أننا نجد بين الشبان من يشتعل رأسه شيباً ، وهو بعد دون العشرين ، فيعيش طيلة عمره كالجندي الخائن ، يحارب رفاقه مع صفوف الاعداء . على أن هذا امر يغلب على الظن أنه نادر الوقوع

***

ألق بنظرك على مصلحة من المصالح ، أو لجنة من اللجان ، أو جماعة من الجماعات ، تجد كلاًّ من الفريقين المتحاربين يتهيأ لطعن الآخر الطعنة النجلاء . فالشيخ الفخور بتاريخه الطويل ،

المثقل ظهره باختباراته ومعارفه ، ينظر شزراً الى ذلك الشاب الغر ، ذي العود الرطيب . والشاب الفخور بآرائه الحديثة الحرة الذي لا يتقيد بالماضي ، ولا يهاب المستقبل ، يهزأ بذلك الشيخ الذي تصلبت شرايينه ، وتخشبت آراؤه . وقد اصطلح الناس مراعاة للتقاليد ان ينهزم الشبان احيانا أمام الشيوخ تأدباً ، قبل ان تصبح المعركة فاصلة . واصطلحوا كذلك ان يكم الشيوخ (الرؤساء عادة) افواه الشبان ، حتى لا تؤدي آراؤهم إلى اطلاق السهام إيذاناً ببدء القتال ، بدعوى أن الشبان لم تنضج بعد آراؤهم ، وان ما عليهم الا التأمين على قول من هم اكبر منهم سناً وإن كانوا حقيقة يفوقونهم فطنة . والنتيجة في أغلب الاحايين مهزلة أو مأساة إذا شئت، فجميع هذه المصالح والمنشآت ، على هذا المبدأ ، تديرها اوتوقراطية من الشيوخ وتحرم كثيراً من الصفات التي يتقدم بها عادة بعض الشبان كالاقدام ، والابتكار ، والحماسة ، والحية ، والقوة . وكذلك نجد الشبان يخطئون كثيراً في الحكم على الشيوخ بالجمود ، والمحافظة ، والتردد ، والرجعية ، فتضعف فيهم روح التعاون الصحيح ، وإن أذعنوا لرؤسائهم (الشيوخ) في الظاهر

ولا بدع إذا خشي الشاب الذكي المحب للعمل والاصلاح والتعاون ، أن تكون سنه عقبة كؤوداً في سبيل نجاحه ، فيوهم الغير أنه اكبر سناً ، وانه في طريق الشيخوخة . ولا بدع إذا خشي الشيخ المحب للعمل والنشاط أن تكون سنه عقبة في سبيل نجاحه ، فيتصابى ، ويتصنع حتى يوهم الغير أنه لا يزال مرناً ، مقداماً ، في عنفوان العمر . وهذا ما فعله موسوليني أخيراً ، وقد أحسن فيما فعل . وذلك انه لما أوشك على الخمسين أوعز الى الصحف ألا تشير الى هذه « الكارثة » تصريحاً أو تلميحاً

***

ولكن ... وهذا بيت القصيد من هذا المقال — ولكن هل ترى الشباب دليل المرونة والنشاط والاقدام ، والابتكار ، والشجاعة ؟ وهل الشيخوخة دليل الجمود ، والتراخي ، والتردد والمحافظة ، والرجعية ، والجبن ؟ لنترك الاجابة عن هذا السؤال الى التاريخ اولاً ، وعلم النفس ثانياً

***

يقول لنا المحاربون في صفوف الشيوخ ان الذهن لا يتماثل الى النضوج والانتاج ، والاستعداد للحكم على الأشياء احكاماً صائبة ، إلا في سن متأخرة ، ويقولون كذلك إن الحياة الجدية لا تبدأ حقيقة إلا بعد الاربعين . بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك ، وها كم الدليل

مات كيتس Keats بعد حياة حافلة بالادب في سن الخامسة والعشرين ، وتولى بت (Pitt)

رأسة الوزارة الانجليزية في سن الرابعة والثمانين ؛ ووضع مندلسون (Mendelssohn) روايته الموسيقية الخالدة (Midsummer's Night's Dream) في سن السابعة عشرة ، وبدأت الروائية الشهيرة جين أوستن (Jane Austin) بكتابة رواياتها الذائعة الصيت في الحادية والعشرين من عمرها . ونشر كبلنج Rudyard Kipling اثني عشر مجلداً قبل بلوغه الثلاثين . وقطع لندبرج Lindbergh المحيط الاطلنطي الى فرنسا وهو في الخامسة والعشرين ونبغ ابن سينا في الطب والعلم والادب وهو بعد دون العشرين، وبدأت انجلترا وتركيا وفرنسا ومصر، تحسب حساباً لمصطفى كامل وهو اقرب الى العشرين منه الى الثلاثين

وكذلك يقول لنا المحاربون في صفوف الشبان أن الشيوخ يصيبهم الهرم والهذيان والاجداب في سن معلومة ، كما تصاب المرأة بالعقم في سن معلومة ، بيد أن التاريخ يقول لنا غير ذلك وهاكم الدليل

***

وضع دانيال ديفو Daniel Defoe أكثر من ثلاثين كتاباً بعد ان جاز السابعة والستين من عمره . وكتب سرفانتيس Cervantes مؤلفهُ الذائع الصيت دون كيشوت Don Quixote الذي يصور عصر الفروسية ، وهو في سن الثامنة والستين . ووضع الفيلسوف كانت Kant أحد مصنفاته الفلسفية العظيمة في الرابعة والسبعين . وهذا تنترتو Tintoretto من اشهر فناني البندقية لم تكف ريشته عن الرسم حتى الرمق الاخير . وقد أخرج لنا لوحته الخالدة « الفردوس » في سن الرابعة والسبعين . وهذا فردي Verdi الموسيقي الطلياني المعروف أتحف العالم بأشهر مقطوعاته الموسيقية البديعة بين الرابعة والسبعين والرابعة والثمانين . ولا تتسع صفحات هذا المقال لتدوين ما يمكن تدوينه من اعمال اولئك الشيوخ الابطال . وحسبي ان اشير الى ما الفهُ هولمز Holmes في التاسعة والسبعين . والى قصة فوست Faust الشهيرة التي انجزها غوته Goethe في الثمانين ، والى Crossing the Bar التي دبجتها يراعة تنيسون Tennyson في الثالثة والثمانين ، وأخيراً الى معجزة المعجزات ، تلك اللوحة الفنية الخالدة « معركة ليبانتو » التي وضعها الرسام الايطالي الشهير تتيان Titian في سن الثامنة والتسعين

هذا من الناحية التاريخية . أما من الناحية العلمية ، فان علم النفس قد كشف لنا أخيراً عن ظاهرة طالما أخطأ الناس في تأويلها . فقد كان من القضايا المسلم بها الى عهد قريب — لا يتجاوز

عشر سنوات — ان النشاط الذهني ، أسوة بالنشاط العضلي ، ولا تقول البدني ، يأخذ في الانحطاط بعد سن الاربعين ، ان لم يكن قبلها بكثير . ويعزى جلّ السبب في هذا الزعم الفاسد الى عدم التفريق بين ضعف الذاكرة ، وضعف الملكات الاخرى ، كملكتي الخيال والتمييز ، وقوة الابتكار ، والمقدرة على الانتاج . ومن المعلوم ان الذاكرة تأخذ في الانحطاط بين سن الاربعين والخمسين ، غير ان كثيراً من هذا الانحطاط الذي يبدو لنا كذلك في الظاهر ، انما هو في الحقيقة شيء آخر . فالرجل متى بلغ المرحلة الخامسة من عمره ، ازدحمت ذاكرته بشتى عناصر الاختبار ، من معلومات ، وافكار ، ومسائل ، وتراكمت في مخيلته حوادث الماضي ، وصور المستقبل ، فلم يعد يعبأ بتافه الامور ، أو يكترث لتفاصيل المسائل . في حين ان الشاب تقفر في هذه كلها ، خليّ البال نسبيًّا ، فيستطيع بطبيعة الحال أن يستعيد الذاكرة في سهولة ، ويسرد التفاصيل في سرعة خاطر . وما يقال عن الشيخ الكثير النسيان ، يقال عن الشاب الذي يشغل مقاماً هامًّا في المجتمع . فرئيس الوزراء ، وإن كان في الثلاثين من عمره ، لا يذكر من الحوادث والارقام والمواعيد ، الا ما يتصل بمهام الدولة اتصالاً مباشراً وثيقاً ، كما ان سكرتيره وإن بلغ الخمسين قد يذكر تاريخ اليوم الذي اشترى فيه رئيسه طربوشه الجديد

هذا ما يختص بالذاكرة التي نكرر القول انها تنحط تدريجيًّا ، وان كان هذا الانحطاط يعزى الكثير منه الى غير السن . اما فيما يختص بالملكات والكفايات التي اومأنا اليها كملكات الحس . والتمييز ، والحكم على الاشياء ، والابتكار ، والانتاج ، فيقول لنا علماء النفس بالحرف الواحد « انهُ من المرجح ان هذه لا تتأثر بالسن »

***

وفي مقدمة البحوث التي كشفت لنا القناع عن هذه المسائل . ما قام بهِ ادوارد ثورنديك ، وهو من أكابر علماء النفس ، ان لم يكن في مقدمة الاحياء منهم قاطبة . وقد خصص ثورنديك عدداً يذكر من مؤلفاته التي أوفت على الاربعين ، لدراسة التعلم ، وكيف تتم عمليته في الجهاز العصبي ، والى التعلم بين الكبار وموازنته بمثله بين الصغار . ويتبين من هذه البحوث الحقائق الآتية : —

(١) في نواحي النشاط الجثمانية التي تتطلب مرونة العضل وقوته كالسباحة والرقص واللعب وأمثالها ، ليس ثمة شك في أن السن هي العامل الاكبر

(٢) ان بين سن الثانية والعشرين والثانية والاربعين لا يكاد يبلغ الانحطاط الذهني الا ١٥ في المائة من النهاية العظمى التي يستطيع ان يبلغها الفرد من القوة الذهنية

(٣) اما فيما يتعلق بتلقي العلوم، وتحصيل المواد الدراسية في مراحل التعليم، من الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية، لا تنحط ملكة التعلم بين الحادية والعشرين والحادية والاربعين الاّ بنسبة نصف الواحد في المائة في العام

(٤) اما في غير ذلك فن ليس ثمة ما يحدو الى انحطاط الكفايات، اللهمّ الاّ عدم الرغبة في قبول الآراء الحديثة والحافظة، والتعصب للماضي. غير ان هذه كلها لا يبتلى بها الشيخ الذي يتمشى مع الزمن بالمطالعة والبحث، وتتبع الحركات الفكرية

(٥) بعد سن الاربعين او الخمسين تقل الرغبة في التعلم بطبيعة الحال، لان الفرد يكون عندئذٍ قد كوّن نفسه، واستقرّ رأيه على المهنة التي زاولها، والالعاب التي يمارسها، واللغات التي يكتبها ويتكلم بها. ولكن هذا لا يقصد به أن الكفايات قد انحطت، او ملكات الانتاج قد تدهورت، لان التعلم شيء، والانتاج شيء آخر. فقد ظل المخترع الشهير اديسون يبتكر ويخترع ويعمل في معمله رغم بلوغه الحلقة الثامنة من عمره ورغم ضعف حواسه

***

اذا كانت الحقيقة كما ذكرنا، فهل هناك ما يبرر ما ذكرناه في صدر هذا المقال من الصراع بين الشيوخ والشبان؟ وهل من العدل ان يحال الموظف العامل الى المعاش، وهو بعد مبتكر مبتدع منتج؟ وحسب هذا النظام يعود الى عوامل اقتصادية ترمي الى إحلال الشبان العاطلين مكان هؤلاء الشيوخ، أليس مما يؤسف له أن نرى في بلادنا بعض الموظفين الاذكياء الاقوياء تخبو انوارهم، بمجرد احالتهم على المعاش، فلا تعود نسمع عنهم شيئاً وكأنهم دفنوا أحياء؟

***

والحقيقة التي لا شك فيها ان السن لم تكن يوماً مقياس النشاط والعمل والانتاج. كما انها لم تكن يوماً دليل الجدب والعقم والذبول. ان الامم في حاجة الى الشيوخ والشبان على السواء، واذا كان الفرق بين الشيخ والشاب في التفكير كبيراً، فان الفروق الفردية بين الشاب والشاب، والشيخ والشيخ قد تكون اكبر. ومما يتنبط له ان تكون هناك فروق وفروق. لانه حيثما يكون التفكير متماثلاً، لا يكون ثمة تفكير البتة. وهنا اريد أن اختم كلمتي بعبارة مأثورة عن الفيلسوف الاجتماعي بطلر رئيس جامعة كولومبيا، ارضاء للشيوخ والشبان على السواء. وهذه هي العبارة وحبذا الحال لو نقشت على بعض القبور «مات في الثلاثين ودفن في السبعين»